الفصل الرابع
خاتمة الكتاب

وفي الـــنهاية.. نتناول موضوع الوحي إلى غير الإنبياء، فمن الصعب الاقتناع بفكرة انقطاع ظاهرة الوحي لغير الأنبياء أيضا، حتى ولو انقطعت النبوة. إن استمرار الوحي الإلهي أمر لا يمكن الاستغناء عنه لدعم الإيمان بوجـــود الله ﷻ بشكل عميق راسخ لا يتزعزع.. ذلك الإيمان الذي لا يمكن تحقيقه بالاعتماد على البحث العقلاني وحده. وعلى هذا.. فالوحي يؤدي دائما دورا كبيرا لتقوية الإيمان بوجود الله العليم القدير.

والوحي الإلهي ليس محصورا في الأنبياء فقط، فالوحي وسيلة لتحقيق الوصال بين الله تعالى والإنسان. وهو ظاهرة عامة لكل الناس، وإنكاره يعد إنكارا لشهادة الملايين من الناس في جميع العصور والأزمان، وفي جميع أنحاء العالم.

وينْزل هذا الوحي الإلهي على عباد الله الذين أخضعوا أنفسهم برُمتها لإرادتـــه ﷻ.. بـــإخلاص وصدق لا تشوبه شائبة. وأما هؤلاء الذين لا يؤمـــنون بالله ﷻ، أو يؤمنون بفكرة وجود إله بشكل عام غامض مبهم، فمن المستبعد أن يحظى هؤلاء بشرف الوحي الإلهي. وهذا ما ينطبق أيضا عـــلى أولـــئك المنغمســـين في ارتكاب الآثام، أو الذين كرّسوا أنفسهم وجهدهم للاغتراف الواسع من المكاسب المادية، والارتواء البالغ من المتع الدنـــيوية. ومع ذلك.. فحتى مثل هؤلاء.. ليسوا بمحرومين كليّة من أن يحظوا من حين لآخر بقبس من هذا الفضل الإلهي. إذ لا يستطيع أحد أن يمنع الله تبارك وتعالى من أن يُنعم بالرؤى الصادقة، أو الكشوف الصالحة، وحتى الوحي الكلامي، على من يشاء، ومتى يشاء.

ولا يدل تلقي الوحي بالضرورة على صلاح وتقوى من يتلقاه،

خاصة إذا كان هذا التلقي عرضيا. وأحيانا يكون الغرض من هذا الوحي هو تذكير الناس عامة بوجود الله، وأنه يستطيع أن يتصل بمن يشاء. ومثل هذه القبسات من الوحي ليست حكرا لأي دين، ولا وقفا على أي قوم، ولا حصرا في أي زمن، بل هي مشتركة بين الجميع. ولو لم يكن الأمر كذلك.. لاضمحل وتلاشى الإيمان بوجود الله نفسه وبإمكانية نزول الوحي الإلهي. إن قبسات الوحي الإلهي هذه مثل الغيث النادر الذي يهطل على حين غرة وبغير انتظار في وسط الصحراء القاحلة، فيخلق واحات تعين على نمو الحياة وسط الموات الممتد على مدى واسع في بحر من الرمال.

وبعض.. من غير المؤمنين.. ينفي وجود هذه الظاهرة العامة، ويعتبر أنها مجرد تهيؤات نفسية. وبالطبع فإن التهيؤات النفسية عامل لا يمكن إغفاله كلية أو استبعاده تماما، غير أن دلائل الوحي الإلهي تختلف عن الهذيانات النفسية العادية بوضوح بحيث يجب ألا يتشبه ويلتبس أمرهما على أحد. إنهما يختلفان كما يختلف النور عن الظلام، أو كما تختلف الحياة عن الموت. غير أنه من الصحيح أيضا أن دلائل الوحي الإلهي يقل وجودها، وتزداد ندرة، كلما ابتعدنا عن الزمن الذي ظهر فيه نبي من عند الله تعالى. فالتأثير المتنامي للمادية يؤثر على الناس، كالسم الذي يُلَوث أفكارهم وعقولهم، كما يفسد طهارة نفوسهم ونقاء قلوبهم، وحينئذ يتضاءل الإيمان بالوحي الإلهي بقدْر يتناسب مع هذا الاضمحلال. ومع مرور الوقت.. يحل عصر جليدي من التشكك في الوحي وإنكاره، وبذلك تبدأ مرحلة من الموات الروحي، وكل ما يتبقى هو الضلال والخداع، ويتسلل النفاق لينتهك حرمة الأديان. وأما المؤمنون في ذلك الوقت.. فمعظمهم يكونون مجرد مؤمنين بالاسم فقط، وأما أسلوب حياتهم فهو يُكَذّب وينفي اتصافهم بالإيمان. ويتلاشى الصدق والإخلاص عمليا من جميع المجالات التي يعمل فيها الإنسان، وتبدأ رياح الشك.. بل

أعاصير انعدام الإيمان.. تهب على أودية الدين. فينحسر الورع، وتتراجع التقوى. ومع ذلك فإن الاتصال بين الله والإنسان لا ينقطع كلية، بل يستمر الوحي لإعادة الحياة إلى الدين، وإعادة الإيمان إلى القلوب. أما أولئك الذين تتوهج وجوههم بنور الإيمان، ويسطع في قلوبهم ضياء محبة الله تعالى، حتى في خضم الظلام الحالك، فإن الله ﷻ يتجلى عليهم ببريق لا يماثله شيء، وبنور لا تشوبه ظلمة. وبالطبع.. فلا وجه للمقارنة بين قبسات الوحي التي تتناثر من الفضل الإلهي في زمن من الأزمان، وبين تجلي المحبة الإلهية التي يُعَبِّر عنها الوحي السماوي مما يغدقه الله تعالى على عباده الصادقين المخلصين. وهذه هي الرسالة التي يؤكد القرآن على حقيقتها، إذ تَعِد المؤمنين بوضوح بنوال بركات الوحي بغير انقطاع على مدى الأزمان. يقول تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَّاحِدٌ ۖ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوْا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا ولا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١٨ الكهف:١١١)

ومن الواضح أن التعبير ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوْا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ يرتبط مباشرة بالتعبير الذي سبقه والذي يذكر الوحي في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾. أما قرار صلاحية أحد لتلقي الوحي فهو دائما في يد الله ﷻ وليس في يد أحد من الناس.

وقد جاء نفس الوعد بنُزول هذا الفضل على المؤمنين بصورة أكثر وضوحا في العديد من الآيات الأخرى، تحمل البشرى للمؤمنين الذين صدقوا الإيمان، وأخلصوا في ثباتهم على الحق في أوقات المحن والابتلاءات. يقول تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوْا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوْا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ

الْمَلآئِكَةُ أَلا تَخَافُوْا وَلا تَحْزَنُوْا وَأَبْشِرُوْا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُوْنَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ (٤١ فُصّلت:٣١-٣٢)

ومن الواضح أن هذه الآيات لا تترك أية غلالة من شك في موضوع استمرار الوحي. ويقول تعالى أيضا في كتابه العزيز:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوْا لِي﴾ (٢ البقرة:١٨٧)

وهنا يتسع نطاق الوعد بالوحي، ليشمل جميع عباد الله الذين يدعونه ﷻ بإخلاص وخضوع، ويستجيبون لدعوته. وهذا وعد عام شامل لا يختص بزمان معين، ولا ينحصر في قوم بعينهم.

وباختصار.. إن الإسلام دين الأمل المستمر والمتجدد، الذي لا يُقْصِر وصال الله تعالى على الأزمنة الخوالي فقط، فهو ﷻ لا يزال الناصح الأمين الكريم الذي يهتم بشؤون خلقه، ولن يتوقف أبدا عن ذلك. إن بابه مفتوح لكل من يطرقه، والوصول إليه متاح لكل من يسعى إليه. وهو يجيب دعوة من يدعوه ولا يردها، إنه أزلي.. ولا يمكن لأي من صفاته أن تنتهي أو تتوقف.

إن الإنسان لا يزال في حاجة إلى الوحي الإلهي. ومن بعد رحيل النبي.. فإن الوحي هو الذي يُبقي شعلة الإيمان مضيئة، ويقويها أكثر من كل وسائل البحث الأخرى من دلائل عقلانية أو فلسفية. ويستطيع الإنسان من خلال تلقي الوحي أن يبلغ مقام اليقين الكامل بوجود الله الحي القيوم. وهو ﷻ ينعم على من يشاء من عباده من علامات قربه ما لا يقتصر فقط على من يدنيه منه، وإنما يضفي عليه من الفضل ما يمكن للآخرين أيضا أن يلمسوه ويتحققوا منه. إن الوحي يقيم الدين على

أساس صلب قوي من الإيمان، ويُبدد جميع الشكوك التي يمكن أن تساور الإنسان. والمأساة الكبرى التي يعاني منها الإسلام المعاصر، هي سقوطه تحت التأثير المشؤوم لكهنة الدين من أصحاب عقلية العصور الوسطى، والمفكرين المتغربين المعاصرين، حتى صار كالفريسة الميتة. وينال كهنة العصور الوسطى نصيب الأسد من لحم هذه الفريسة، أما المفكرون العظام من أمثال العلامة إقبال، وعلماء الدين من أمثال المودودي، فهم ليسوا أقل تنافسا للفوز ببعض الفتات من لحم الفريسة. فإقبال.. كمريد قدير لنيتشة.. يريد أن يلغي إلى الأبد الحاجة إلى الهدْي الإلهي. كذلك فإن المودودي.. الذي هو هجين نتج من التزاوج بين أفكار بولس وبهاء الله.. يريد أن يلغي مجيء أي نبي، لكي لا يكون التكذيب به سببا لنُزول اللعنة من الله تعالى. وبين هذيْن الفارسين المغواريْن لم يبق شيء من النبوة ولا من الوحي، فقد تركا الإسلام خاليا من كل أمل. وقد لا يمكن تلخيص فلسفتهما بكلمات أفضل من تلك التي صاغها الشاعر فيض أحمد فيض، أحد عظماء شعراء اللغة الأردية في العصر الحديث، إذ يقول ما ترجمته:

لقد أخفى التراب الغريب آثار جميع الأقدام
فأطفئ المصابيح وارْفع الكؤوس وأقداح الشراب
وأوْصد الأبواب التي تأتيك بالأمل وأغلقها بالمغاليق
فلن يأتي أحد! أبدا.. لن يأتي أحد!![1]

وأسفاه!.. لقد قضوا على الوحي والنبوة.. اللذين هما الروح والقلب لكل دين حي، فلم يبق من الإسلام سوى جسد يماثل جسد من أصيب بالموت السريري.. لا تزال به مسحة من حياة، ولكن بلا معنى وبغير قيمة! ما لهم لا يقرءون الكتابة المحفورة على حائط التاريخ؟

إذا حدث أن غاب الوحي كلية عن الحياة الدينية.. فإن نبض هذه الحياة يتوقف، ويهوي الدين إلى حضيض الأساطير والخرافات. إذا فُقد الوحي فإن الحياة الروحية تفقد أيضا معناها، ويصبح الدين بغير قيمة ولا

هدف.

إن الوحي يضيء الإيمان بنور المعرفة الربانية، وينير الروح بأشعة المحبة الإلهية، وينفخ في الدين نسمات الحياة.

وفي خضم ظلمات المادية.. عندما يضاعف الإلحاد من شعور الكآبة وفقـــدان الغاية، فإن الوحي هو الذي يأتي بالنور الذي يُحَوّل اليأس إلى أمـــل، ويُـــبدّل ظلام الشكوك إلى نور اليقين، ويُغَير ليل الكفر إلى نهار الإيمـــان. إن الـــنبي بالنسبة للدين كالشمس بالنسبة للنهار، وعند غياب الشـــمس ورحيل النبي، فإن ما تقوم به النجوم من هداية للإنسان في ليلة محاق غير مقمرة، يقوم به الوحي في إزالة الغشاوة من على العيون.

اقطعوا النبوة.. وامنعوا نزول الوحي، ولكن.. اعتبروا ذلك اليوم هو يوم الدينونة، فلن يبقى شيء بعد ذلك سوى الموت المطبق.

وإلى الملتقى!

*****

المـــــــراجع

1. FAIZ AHMED FAIZ. *Nuskhah Hāi Wafā,* from poem ‘Tanhāī’.